



الحلقة الرابعة

أندريه مالرو

دعونا نغادر أرض الوطن.. وحدود الوطن العربي كله.. إلى قارة أوروبا: قارة الحضارات والثقافة والفكر والآداب والفلسفة والموسيقى والفنون.. القارة التي استعمرت العالم قديماً وبهرته وماتزال تبهره حديثاً، بتقدمها الصناعي.. وجمالها المعماري.. وبحيوية فكرها وآدابها وفنونها وموسيقاها، ونماذجها العلمية والأدبية والفنية التي لم تنقطع عن تصديرها إلى العالم كله.. منذ الثورة الصناعية في القرن السادس عشر وإلى اليوم، لأقف، وتقضون معي عند واحد من أدبائها في القرن العشرين.. عند «أندريه مارلو»: المثقف.. والسياسي والمحارب والأديب والروائي والفنان، الذي ولد في مطلع القرن العشرين، وشارك في الحرب الأهلية الصينية ما بين عامي ١٩٢٥م إلى عام ١٩٢٧م.. فاستهوته عاصمة الصين: «بكين» وحضارتها وفلسفتها وثقافتها.. فمكث بها سنيماً طويلة كتب خلالها أولى رواياته الثلاث، لكن أهمها.. كانت روايته «مصير البشر» الذي أخذ عنها الجائزة الفرنسية المعروفة «جونكور».. فكان بذلك كسلفه السياسي والأديب «كليمنصو» الذي كتب في الصين روايته الرائعة «قتاع السعادة»..

وكان عجبياً أن ينتقل هذا الأديب الفنان والسياسي المحارب.. إلى «أسبانيا» ليكتب عن المقاومة الأسبانية في أوائل الثلاثينات عبر روايته الأشهر: «الاحتقار» في ١٩٢٥م، و«الأمل» في عام ١٩٢٨م، ليعود بعد ذلك إلى فرنسا.. وإلى مقاومة الاحتلال النازي لـ «فرنسا» وباريس خلف الزعيم الفرنسي شارل ديغول، الذي أعجب به.. وبوقفته وسط انهيار فرنسا أمام جحافل القوات الألمانية الهتلرية. إذ كان «ديغول» ساعتها.. ليس بأكثر من موظف فرنسي صغير برتبة وكيل وزارة في وزارة الحربية، ولكنه خطف عقله وقلبه.. عندما هرب من فرنسا إلى إنجلترا وأعلن المقاومة للنازية: وهو يقول: أنا فرنسا.. الحرة.

وعندما انتهت الحرب بانتصار «الحلفاء»، ومعهم «المقاومة» التي قادها ديغول وإلى جانبه مارلو.. وجرت الانتخابات التي لم تعط ديغول وصديقه ما تمنياه لينصرف كل منهم إلى مسقط رأسه، ثم ليعودا من جديد مع أزمة الثورة الجزائرية والانقسام الفرنسي الشعبي الذي حدث وقتها حولها.. بين الجنرالات الفرنسيين الذين يعتبرون الجزائر أرضاً فرنسية، وبين «ديغول» الذي كان يقول وقتها كما ذكر مارلو: «كان على فرنسا أن ترتدع عن التعلق بمستعمرة، وترك الخيار لها بأن تنضوي تحت الهيمنة الفرنسية، أو أن تتسلم استقلالها».. ليقيم الجمهورية الرابعة برئاسة.. وليكون «مارلو» وزير ثقافته الدائم فيها..

لقد كتب مارلو الكثير من الروايات.. والمئات من المقالات..  
والعشرات من القصص ولكن عندما مات ديجول أثناء اعتزاله  
الأخير في نوفمبر عام ١٩٧٠م بقريته الثلجية «كولبي».. كتب عنه  
ربما أجمل كتبه ورواياته وبإطلاق. إنه كتاب: السنديانات التي  
يقطعون.. أو «ديجول وأنا»..

لقد أحبه في ذلك الكتاب.. وكتب قصة حياته.. وقدم فكره  
وعشرات العشرات من مواقفه وذكرياته وسخرياته وأحزانه.. فيما  
لا يزيد عن مائة وستين صفحة من الحجم الصغير، وعلى طريقة  
الفرنسيين خصوصاً والأوروبيين عموماً الذين تكتنز سطورهم  
القليلة.. معان كثيرة تبهر وتدير الرؤوس..!

في البدء قال عنه: «وجه بلا عمر. وصمت أجمل من الكلام.  
وكلام أمتع من الصمت»..

وقال عنه: «إنه بطل ينتمي إلى الميدان الأسطوري، ولذلك  
فإن فعله لا يتأتى من النتائج التي يبلغها.. بل من الأحلام التي  
يجسدها»..!!

و«أن في مجده عنصر غير عقلاني، فهو قائد التحرير،  
والمنتصر المنفرد، والمتمرد، وصاحب قيامة الطاقة الوطنية،  
ومن ثم قيامة الأمل حتى عام ١٩٥٨م، وهو الوحيد الكان جديراً  
بمواجهة الكارثة (ويعني بها الاحتلال الألماني) لا لأنه قادر على  
تحقيق الوحدة الوطنية على طريقة بوانكاريه. لكن لأنه كان يحمل  
فرنسا فيه»..!!

وأخيراً «إن أصدقاءه وخصومه معاً، يجدون فيه ساحراً كما جان دارك في محكمة روان..! التي حكمت عليها المحكمة بالموت حرقاً، وهي الوطنية والقديسة الحاملة بفرنسا ومجدها»..!!

ولكن ما أجمله عندما تحدث عن «المساواة» و«التمييز» عند الفرنسيين وهو يتوجه بخطابه إلى دييجول: «الفرنسيون كما تعرف يصعب عليهم التصرف بين رغبتهم في التمايزات وذوقهم في المساواة»..!! وما أروعوه وهو يسترجع مع دييجول قولته: «الزمن وحده يصنع التاريخ. وإذا تاريخ فرنسا يمر في استقلال الجزائر، فليمر! في اتحادنا مع ألمانيا، فليمر، لم يكن مفرحاً الندم على استقلال الجزائر»، وما أمتعته وهو يستعيد موقف دييجول «عندما رأى الفنانة بريجيت باردو في إحدى حفلات الإليزيه تصل بثوب فاضح على الطريقة الفرنسية.. ليبتسم لها قائلاً: ما أقل حظي يا سيدتي. أنت بالزبي العسكري وأنا بالزبي المدني»..!

وكان أكثر روعة وهو يتحدث عن حب «دييجول» الملتبس لنا بليون، الذي أعجب بقولته عندما وصل إلى منفاه في جزيرة سانت هيلين: «هذا محزن.. كما العظمة»..! لكن.. مع ذلك، قال عنه: «ترك فرنسا أصغر مما وجدها»،!! ليضيف برؤياه التاريخية الرائعة «لكن الأمة لا تتجدد هكذا، فقد كان يجب من صالح فرنسا.. أن يوجد، كما فرساي.. كان يجب بناؤه. لا يجب أن نفخر بالعظمة»..!!

إلا أن عظمة «مالرو» و«دييجول» تجلتا معاً.. عندما طلب مالرو من دييجول العودة عن استقالته بعد أحداث ٦٨م والاستفتاء الذي

جرى بعدها.. فقال له: «لن يمكنني للمرة الثالثة الإمساك بفرنسا من شعرها.. في اللحظات الأخيرة».. ١٩

ما أمتع وأروع ذلك الذي كتبه أندريه مارلو.. وجعل منه نجماً ساطعاً من نجوم القرن العشرين يلحق بمن سبقوه وجايلوه من أدباء وأدبيات فرنسا.. الذين سيكون لي معهم أكثر من لقاء عودة في هذه السلسلة من المقالات.